



هل حقاً ما تكرّر السلطات السورية أنس الليل وأطراف النهار عن وجود "مؤامرة إقليمية دولية" تحرّك الأحداث الدرامية الراهنة في البلاد؟ وهل تعني هذه البيانات، في العمق، أن الوضع خرج عن السيطرة أو يكاد، بحيث تصبح ثمة ضرورة لتصوّر "عدو خارجي" يتم تصدير الاضطرابات إليه؟ ثم: سوريا إلى أين من هنا؟

ثمة حقيقةان مقاطعتان هنا؛ الأولى: أن سوريا وبقية سُرِّب الأنظمة العربية، لم تُعد تعيش، لا في ظل عزلة داخلية ولا في بيئة دولية مُتسامحة أو حتى متوافطة ومتخالفة، مع الأنظمة السلطوية. فهذا عصر الحرب العالمية على "الإرهاب" وإنترنت والفيسبوك والتويتر، كما هُم عصر قوانين العولمة، التي تُمْقت الفراغ الديمocrطي وتريد بناء سوق شرق أوسطي ضخم يضم 600 مليون مستهلك عربي وتركي وإيراني وإسرائيلي للسلع التي تنتجه الشركات العملاقة متعددة الجنسيات، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا وفق قواعد سيادة القانون واستقرار المجتمعات المدنية، التي توفرها الأنظمة الديمocrطية.

والثانية: أن الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، لم تُخف ولا تخفي الآن -كما سنرى بعد قليل- دعمها للتغيير الأنظمة السلطوية والديكتاتورية العربية بكل أشكالها. كان هذا الخطاب الرسمي والعلني لإدارة الرئيس جورج بوش في ولاليها المتاليتين منذ عام 2000م وحتى عام 2008م، حين أعلنت عن نيتها إقامة نظام شرق أوسطي جيد ثم كبير ثم موسّع، وهي قررت هذا القول بالفعل، حين غزت أفغانستان والعراق، وكانت قواتها العسكرية أن تحطّ الرحال في سوريا وإيران، وكذلك ليبيا قبل الاستسلام الكامل للعقيد معمر القذافي لشروطها في نهاية عام 2003م.

صحيح أن إدارة أوباما أوجّحت أنها تتنصل من مشاريع بوش والمحافظين الجدد لـ"تصدير الديمocrطية" بالقوة إلى العالم العربي، وصحيح أيضاً أنها مدّت يد الصداقة إلى الأنظمة السلطوية تحت شعار "الحوار والصداقة مع العالم الإسلامي ككل"، لكن تبيّن فيما بعد أن هذه الإدارة احتفظت بإستراتيجية بوش، لكن مع تكتيكات من "القوة الصledge" لفرض الديمocrطية بالقوة إلى استخدام القوة "الناعمة" لتحقيق هذا الغرض، وهذا تجسّد في المجهودات الضخمة التي بذلتها المنظمات غير الرسمية الأمريكية ودفعت من أجلها مئات ملايين الدولارات تحت شعار "ترقية الديمocrطية" في العالم العربي، خاصة عبر دعم انتشار أدوات الإعلام الاجتماعي الحديثة.

هكذا تحدّث غيتيس:

سوريا كانت من ضمن الدول التي استهدفتها هذه البرامج والجهود. وكما كشفت "واشنطن بوست" قبل أيام 17 أبريل الحالي، فقد كانت الولايات المتحدة تموّل منذ عام 2009م المحطة الفضائية السورية "بردى"، التي تُبث من لندن والتي يُشرف عليها تيار العدالة والتنمية السوري المعارض. كما خصّصت 6 ملايين دولار لتمويل حركات ناشطة ديمocrطياً داخل سوريا نفسها.

ومنجاً إلى جنب مع هذه التوجّهات الأمريكية الواضحة في استهدافاتها، كان وزير الدفاع الأمريكي روبرت غيتيس يُدلّي

بأخطر تصريح من نوعه في الأيام الأولى من اندلاع الانتفاضة الشعبية السورية الحالية، على رغم أن الكثرين لم ينتبهوا آنذاك إلى مضمونه.

وزير الدفاع الأمريكي روبرت غيتس في صورة وزعتها شبكة CBS التلفزيونية بتاريخ 27/ مارس/ 2011م (Keystone).
ماذا قال غيتس؟

رسم أولًا صورة متشابهة بين ما جرى في مصر وما يجري الآن في سوريا، ثم قال: "لقد عُدْت للتقى من مصر، حيث وقف الجيش المصري جانباً وسمح للشعب بالتظاهر، لا بل هو مَكِّن أيضاً الثورة. السوريون يجب أن يستقروا درساً من ذلك". وأضاف: "يمكن أن أقول إن ما تواجهه الحكومة السورية، هو في الحقيقة التحدّي نفسه الذي يواجه العدد للغاية من الحكومات عبر المنطقة، وهو التظلمات السياسية والاقتصادية التي لم يتم تلبيتها من جانب الحكومات".

لماذا اختار غيتس التركيز على دور الجيش السوري، على رغم معرفة الكثرين أن النظام يُحكِم قبضته على مفاصله الرئيسية؟ هل تُراهن الولايات المتحدة على "انقلاب قصر" من داخل النظام لإنقاذ النظام نفسه، في حال عجزت القيادة السياسية والأمنية الحالية عن إدخال سوريا في مرحلة انتقالية إلى الديمقراطية؟

تركيا وإيران:

قبل محاولة الإجابة، فلنكمـل -أولاً- رحلة المعطيات الخارجية. وهنا، سنجـد أنفسنا وجـهاً إلى وجه مع القوى الإقليمية الكـبرـى الثلاث في المنطقة: تركيا، وإـران، والـسـعـودـيـة، وإـسـرـائـيل.

الموقف التركي من التطورات السورية يـبـدو خـطـيرـاً هو الآخر، إذ قـالـت مـعـلومـات خـاصـة لـ swissinfo.ch: "إن الاجتماع الأخير بين الرئيس السوري بشار الأسد وبين وزير الخارجية التركي أحمد داود أوغلو، شـابـهـ التـوـرـ وـحتـىـ الغـضـبـ فيـ بعضـ الأـحـيـانـ، حـيـثـ تـحدـثـ هـذـاـ الأـخـيـرـ معـ الأـولـ بـلـغـةـ وـصـفـتـ بـأنـهـ كـانـتـ (ـفـوـقـيـةـ)، وـتـعـالـبـ بـتـنـازـلـاتـ كـبـرـىـ منـ النـظـامـ لـصالـحـ المـتـظـاهـرـينـ وـالـمحـتجـيـنـ. وـقـبـلـ هـذـاـ الحـدـثـ، كـانـتـ تـجـريـ التـطـورـاتـ الآـتـيـةـ:

المؤتمر الصحفي الذي عقده محمد رياض الشقة، المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين السوريين في إسطنبول قبل أيام، ودعا فيه إلى "التغيير التدريجي" في سوريا، مهدداً بـمـوـاـصـلـةـ الـاحـتـاجـاجـاتـ السـلـمـيـةـ، كـماـ إـلـىـ (ـوـسـاطـةـ تـرـكـيـةـ) بـيـنـ النـظـامـ وـالـمـعـارـضـةـ. وـبـالـطـبعـ، مـدـلـولـاتـ إـلـاءـ الشـقـفـةـ هـذـاـ الـبـيـانـ فـيـ اـسـطـنـبـولـ، لـيـسـ خـافـيـةـ.

الاتصالات الهاتفية المتكررة التي أجرتها رئيس الوزراء التركي أردوغان مع الأسد، لـحـثـهـ عـلـىـ الـقـيـامـ بـإـصـلـاحـاتـ، وـذـلـكـ بـعـدـ يومـ واحدـ منـ خطـابـ الأـسـدـ، الـذـيـ وـصـفـ الـاحـتـاجـاجـاتـ الشـعـبـيـةـ فـيـ بـلـادـهـ بـأـنـهـ (ـمـؤـامـرـةـ ذـكـيـةـ) تـسـتـهـدـفـ سورـياـ.

أما الرئيس التركي عبد الله غـلـ، فقد كان الأعنـفـ بـيـنـ الـقـادـةـ الـأـتـرـاكـ فـيـ ردـودـ فعلـهـ، إذ قال بـشـكـلـ غـيرـ مـعـتـادـ: يجب عمل ما يجب عملـهـ. لا يمكن أن تـوـجـدـ أـنـظـمـةـ مـغـلـقـةـ عـلـىـ سـاحـلـ الـبـحـرـ الـمـتوـسـطـ".

إـرانـ مـنـ جـانـبـهاـ، لمـ تـكـنـ أـقـلـ "ـتـدـخـلـاـ"ـ فـيـ الشـأـنـ السـوـرـيـ منـ تـرـكـيـ، إذـ يـقـالـ أـنـهـ سـارـعـتـ إـلـىـ تـزوـيدـ حـكـومـةـ دـمـشـقـ بـوـسـائلـ تـكـنـوـلـوـجـيـةـ مـتـطـوـرـةـ لـمـلـاـحـقـةـ الـمـحـجـجـيـنـ عـلـىـ الـفـيـسـ بوـكـ وـالـتـويـترـ، إـضـافـةـ إـلـىـ تـبـادـلـ الـخـبـرـاتـ معـهـاـ حـوـلـ كـيـفـيـةـ التـصـدـيـ لـالـمـظـاهـرـاتـ الشـعـبـيـةـ، هـذـاـ عـلـوـةـ عـلـىـ الدـعـمـ الـعـلـنـيـ الـقـويـ الـذـيـ قـدـمـتـهـ وـلـاـ تـزالـ، أـجـهـزـةـ الـإـعـلـامـ الـإـيـرـانـيـةـ وـحـلـفـاؤـهـاـ فـيـ لـبـانـ الـنـظـامـ السـوـرـيـ.

الـسـعـودـيـةـ مـنـ جـهـتهاـ، تـتـخـذـ عـلـىـ الـأـرجـحـ مـوقـفـاـ تـرـيـدـهـ أـنـ يـكـونـ فـيـ "ـمـنـزـلـةـ بـيـنـ الـمـنـزـلـيـتـيـنـ". فـهـيـ غـيـرـ مـهـتمـةـ بـالـتـأـكـيدـ بـالـإـصـلـاحـاتـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ السـوـرـيـةـ، لـاـ بلـ هيـ تـرـفـضـهـاـ. لـكـنـهـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ، تـرـيـدـ استـثـمـارـ الثـورـةـ الشـعـبـيـةـ لـصالـحـهـ، بـهـدـفـ حـمـلـ النـظـامـ عـلـىـ قـطـعـ عـلـائـقـهـ مـعـ إـرـانـ وـالـانـضـوـاءـ تـحـتـ عـبـاءـتـهـاـ هـيـ، وـهـذـاـ بـرـأـيـهـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـتـحـقـقـ إـذـاـ مـاـ بـاتـ هـيـ لـاعـبـاـ رـئـيـسـيـاـ فـيـ الشـأـنـ الدـاخـلـيـ السـوـرـيـ منـ خـلـالـ الـعـلـمـ عـلـىـ اـسـتـقطـابـ مـعـارـضـهـ مـنـ لـوـنـ مـعـيـنـ إـلـيـهاـ.

أـمـاـ إـسـرـائـيلـ، فـهـيـ تـبـدوـ فـيـ حـيـرـةـ مـنـ أـمـرـهـاـ إـزـاءـ مـاـ يـجـريـ فـيـ بـلـادـ الشـامـ. فـ"ـقـلـبـهاـ"ـ مـعـ بـقاءـ نـظـامـ وـقـرـ لـهـ الـأـمـنـ الثـابـتـ طـيـلةـ 40ـ

عاماً في هضبة الجولان، التي تزودها بربع حاجتها من المياه و"عقلها" يدعوها إلى إضعاف النظام بهدف إجباره على فك تحالفه مع كلٍّ من إيران وحزب الله وحماس. بيد أن الموقف الإسرائيلي، وسواء انحاز إلى "القلب" أو "العقل"، لن يكون لها تأثير كبير على الأوضاع الداخلية السورية كما الدور التركي والإيراني. تأثيره الوحيد سيتعلق بالجدل الدائر حالياً داخل الإدارة الأمريكية حول أفضل السُّبُل لحماية إسرائيل من أي تطورات "سلبية" ضدّها قد تُسفر عن انتفاضة سورية.

سوريا إلى أين؟

هذه إذن، هي المعطيات الدولية والإقليمية التي تحيط بالتطورات الأمنية والسياسية في سوريا. وهذه كما هو واضح، لا تشفي بوجود "مؤامرة". فمواقف جميع الأطراف واضحة وعلنية، وإن تفاوتت في طبيعتها أو توجهاتها أو حدتها. هذه نقطة. وثمة نقطة ثانية لا تقل أهمية البتة: الاحتجاجات الشعبية، وبغضّ النظر عن "الأيدي الخارجية"، هي نبتة محلية ترعرعت على مدى 40 عاماً في حُصن كُبُت الحرّيات واستبداد أجهزة الأمن وانسداد أفق التنمية الاقتصادية الاجتماعية المتوازنة – هناك 6-8 ملايين سوري تحت خط الفقر والهوة بين الفقراء والأغنياء، باتت شاسعة في السنوات الأخيرة.

وقد بات الآن لهذه النبتة المحلية جدولين جديدين يُسْقيانها: **الجدول الأول الرقرّاق**: هو الانتصار الصاعق للثورات الديمقراطية في مصر وتونس اللتين ربما لهما الدور الحاسم في كسر حاجز الخوف بين السوريين. **والجدول الثاني**: هو الجيل الجديد السوري الذي لم يُعد يقبل الصفقة الضمّنية التي أبرمها الجيل القديم مع نظام الرئيس حافظ الأسد: حصول هذا الجيل على سياسة قومية عربية مناضلة ضد إسرائيل في الخارج، في مقابل التخلّي عن حرّياته في الداخل. الجيل الجديد يريد الآن التحرّر القومي والحرية الفردية معاً، ومعهما الكرامة والخبز.

الآن، وبعد قول كل شيء عن الظروف التي تحيط بالمتّحدات الداخلية والخارجية، نأتي إلى السؤال: سوريا إلى أين؟ حسناً. الخيارات ليست عديدة، وهي تتلخص في اثنين لا غير:

. **تغيير سلوك النظام من داخل النظام**، سواء عبر انتصار تيار الرئيس الأسد على التيارات المترفة التي تريد فرض الحلّ الأمني العنيف وإشرافه – الأسد – على مرحلة انتقالية إلى الديمقراطية، أو "انقلاب قصر" تقوم به القيادات المختلطة في الجيش السوري – بما يحقق "نبوءة" روبرت غيتس – لإشراف على هذه المرحلة.

. **الختار الليبي**، الذي تتفكّك فيه المؤسسات السورية ثم سوريا نفسها، في إطار حرب أهلية دموية، ستكون فيها تطورات ليبيّا أشبه بالألعاب أطفال.

الأمور لم تصل بعد إلى هذه المرحلة، لكنها قد تصل إليها قريباً في حال وصلت الانتفاضة إلى "المراحل الحرجة"، كما في مصر وتونس، حين نزل مئات الآلاف إلى الشوارع. وحينها، سيكون على الجميع الاختيار بين التطور أو الانتحار.

المصدر: سويس أنفو

المصادر: